أكاديمية فتح الفكرية

أكاديمية الشهيد عثمان أبو غربية

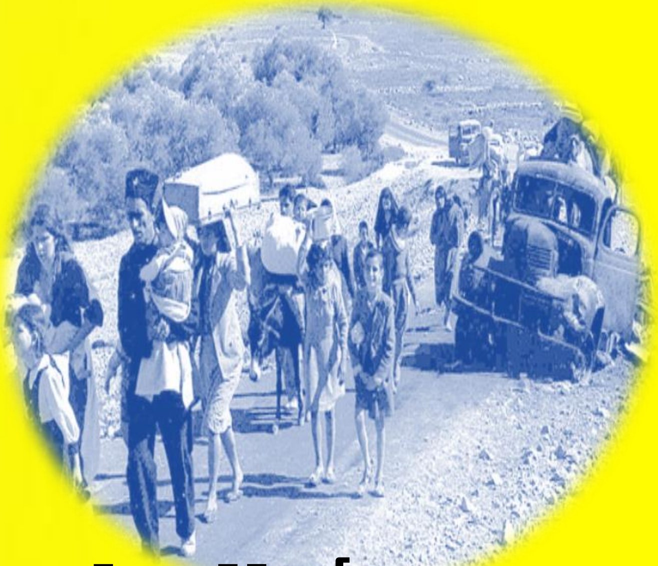

أخلاقيات اللاجئ

خالد غنام

اخلاقيات اللاجيء

بقلم خالد غنام[1] – استراليا

إن تجربة الفلسطينيين مع اللجوء تتعدى ٧٤ سنة حتى اليوم، فقد بدأت بطرد الثوار الفلسطينيين منذ الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) وكان على رأسهم قيادات العمل الوطني أمثال الحاج أمين الحسيني، وصولاً للنكبة عام 1948 ثم النكسة وجموع النازحين في العام 1967م.

ترك اللجوء حالة انكسار مزمنة بالعقلية الفلسطينية باعتقادي يتلخص بالمثل الشعبي: "إللي خرج من داره قلّ مقداره".

فعلى الرغم من التعاطف العربي مع اللاجئين الفلسطينيين إلا أنهم شعروا دائماً أنهم مكسوري الجناح، وأنهم جزء زائد في المجتمعات العربية يقتاتون على فضلة فرص العمل ويسكنون في الخرائب على أطراف المدن، كما أنهم شعروا[2] بآلام فقدان حق

---

[1] خالد غنام كاتب فلسطيني مقيم في أستراليا، وله عدة كتب، وعديد المقالات، وهو عضو مجلس إدارة مركز الانطلاقة للدراسات. ويتم تقديم هذه المقالة بالتعاون بين مركز الانطلاقة للدراسات واكاديمية فتح الفكرية.

[2] من المهم الاطلاع على كتاب روزماري صايغ المعنون: الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع الى الثورة ويضم هذا الكتاب واحدة من أهم الدراسات التي صدرت حتى الآن عن تاريخ الفلسطينيين المعاصر. وهي تقوم أساساً-بالاضافة الى البحث-على مقابلات اجرتها المؤلفة بين 1975و1978، مع عدد كبير من الفلسطينيين، مع تركيز خاص على الفلاحين أو أصحاب الأصول الفلاحية، الذين قادهم الاقتلاع (واللجوء) عام 1948 الى لبنان. ويشمل هذا الكتاب: الوضع الاقتصادي والاجتماعي للفلاحين في ظل الانتداب، أثر الانتداب والاستعمار الصهيوني في البنية الاجتماعية، دور بريطانيا في صنع الانتصار الصهيوني، الاقتلاع والعوامل الحقيقية التي تكالبت لدفع الفلسطينيين الى "الهجرة"، وضع اللاجئين في البلدان المضيفة والتغييرات البنيوية ونتائج الاقتلاع، أشكال الاضطهاد السياسي حتى عام 1965، الثورة: جذورها وطبيعتها، بدء العمل الفدائي في لبنان وانعكاساته، نظرة نقدية على مهام الثورة وانجازاتها ومقدار التغيير الذي حققته.

المواطنة وأنهم لا يقررون شؤونهم الداخلية فهي من اختصاص البلاد المضيفة، التي لم تكن قادرة على تقديم الخدمات لهم لافتقارها الموارد الاقتصادية .

في نظرة عميقة في التاريخ الفلسطيني نرى أن الشعب الفلسطيني حافظ على فلسطين كأرض مقدسة تحتضن كل شريد ومهجر، فكانت (الشام وفلسطين منها) ملجأ تستقبل الناجين من العرب بعد سقوط الأندلس، وكذلك لجأ إليها الثوار الجزائرين المنفيين بعد الاستعمار الفرنسي فرنسي منذ عام ١٨٣٤ وأسسوا قرى لهم في قضاء صفد، وكذلك الأرمن والشركس والشيشان والداغستانيين وغيرهم من الهجرات الجماعية، أما الهجرات الفردية فهي لا تعد ولا تحصى .

ضمن هذه الخلفية الثقافية يكون الفلسطينون على دراية تامة، بهموم اللاجئين ومشكلاتهم المزمنة وكذلك هم يعرفون ويلات الحروب وأن الشعوب لا يغادرون بلادهم إلا **بعد أن يفقدوا شعورهم بالأمان، فيكون خروجهم لتنجوا أجسادهم رغم أن قلوبهم تبقى حبيسة الوطن.**

من تجربتي الشخصية تعاملت مع لاجئين من دول كثيرة لعل أهمها الأفغان وفيتنام وتاميل واثيوبيا وبالتأكيد لاجئين الدول العربية الشقيقة، والعامل المشترك بينهم الشعور بالانكسار وعدم الاستقرار حتى بعد إعادة توطينهم بالبلاد الغربية.

وقد تم تصنيف مشاكلهم النفسية في قسم خاص بعلم النفس اسمه **عقدة اللاجئ المزمنة،**[3] فلا يمكن أن ينسى اللاجئ وطنه مهما كان عرقه أو دينه أو إيمانه بقيادته

---

[3] في الأدبيات الثورية استطاع اللاجئون الفلسطينيون -بعد العام 1948 تخصيصًا- ان ينتقلوا لعقلية أوسمات ثلاثية أولاها عقلية أو سمة أصبحت لصيقة بهم هي التعليم ثم سمة العمل فانساحوا بأرجاء الأرض (خاصة العربية) يعمرونها، ثم ثالثا سمة الثورية او النضالية، وكلها كردة فعل ايجابية عن عقدة اللجوء والانتظاروالسلبية والتواكل أووهم أن الحل بيد الآخرين كما كان شأن فئات منهم -مركز الانطلاقة للدراسات.

السياسية والدينية، مما يخلق داخله شعور بضعف الانتماء لمجتمعه الجديد وصعوبة خلق ولاء للنظام السياسي المضيف له حتى لو حصل على حقوق المواطنة كاملة .

يمتاز اللاجئ **بعاطفة زائدة تجعله يتحسس من نظرة شفقة أو كلمة تنقص كرامته،** بل أنه **يبالغ بإحساسه أن وطنه هو جنة الله بالأرض**[4] وأن باقي بلاد العالم لا تساوي دقيقة يعود بها إلى حياته الطبيعية في وطنه، كما أن **صورة الوطن عنده مختزلة بهيئة الوطن قبل رحيله،** وهو يرفض أي تغير يحصل في وطنه، أي تغير إيجابي أوسلبي يحرك هيئة الوطن المتخيل يرفضها اللاجئ ويعتبرها متطفلة على الوطن، بل أنه ينزع الوطنية عن أبناء وطنه، الذين يسعون لتطوير الوطن فهذا بالنسبة له تغيير بحقيقة الوطن[5] .

كما أن **إحساسه بالظلم تجعله يقلل من مصائب الآخرين،** وكأنهم لم يعانوا مثلما عانى، وأن العالم كله لم يحرك ساكن لمنع المؤامرة التي تعرض لها.

هذا يدفع **بعض اللاجئين لفعل أعمال وأقوال مشينة، أخطرها الشماتة باللاجئين الآخرين؛** كأن يقول ذوقوا ما تجرعت ألمًا، أو أنه يفرض نفسه عنه في فعاليات الآخرين ويقول قضيتهم جديدة أما قضيتي فهي قديم وبحاجة لحل عاجل.

---

[4] خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، استمع فنان بولندي مهاجر الى فنانين عراقيين يتذمرون من عدم وجود ما يغري الرسام أو يثري تجربته في بلده الذي يفتقر الى الألوان، ويغبطون الغربي الذي يجد كل هذا الثراء في متناوله هناك في الغرب. فابتسم البولندي وقال لأصدقائه الفنانين العرب: "لو كنتم تحبون بلدكم وطينه لوجدتم فيه كل الألوان".-مركز الانطلاقة لدراسات

[5] للاطلاع على كتاب "الأرض في ذاكرة الفلسطينيين" الذي صدر عام 2004م عن مركز شمل في رام الله وهو الأول من سلسلة التاريخ الشفوي الفلسطيني من إعداد الكاتب عبد الفتاح القلقيلي، والذي اعتمد على التاريخ الشفوي الذي تم تسجيله في مخيم جنين إثر اجتياح المخيم في نيسان 2002 وبعد لجوء سكانه إلى تجمعات جديدة بعد أن دمر معظمه، وقد قام مركز شمل بتفريغ 100 مقابلة، استخدم الكاتب نحو نصفها في الوصول إلى الاستنتاجات المتعلقة بالأرض في ذاكرة الفلسطينيين.

هذه التصرفات تنم عن إحباط نفسي عميق يجعل اللاجئ انطوائي وغير قادر على فهم حقيقة ما يحدث حوله، بل أنها تسبب بآلام أخطر بعدما يفقد حاضنته المؤيدة له بسبب استهجانها لتصرفاته[6] .

اللاجئ بطبيعة يتابع الأخبار السياسية ويحاول قدر الإمكان فرز العالم لمعسكر الحلفاء ومعسكر الأعداء، إلا أنه يطالب معسكر الحلفاء بالتفرغ الكامل لقضيته هو دون أي قضية أخرى، وهذا لا يمكن أن يتحقق فتراه، ينفي صفة الحلفاء على الكثير من الأصدقاء لأنهم وضعوا قضيته بأسفل ذيل اهتماماتهم، وهذا يعني أنه يوسع معسكر الأعداء مما يسبب بإحباط مزمن برؤيته لمستقبل وطنه .

اللاجئ **يمتلك طبيعة حالمة تجعله يتعلق بأوهام السياسيين الذين يتاجرون بمشاعره** فيسقط عليهم قدسية لأنهم يضعون قضيته في أعلى سلم تصريحاتهم الإعلامية إلا أنهم لا يحركون ساكنًا على أرض الواقع، لكن **اللاجئ يضع حولهم هالة دينية ويرفض من يقلل من شأنهم[7].**

والسبب الحقيقي وراء ذلك هو **قناعته التامة أنه لن ينتصر إلا بدعم خارق لقوى ربانية، مما يجعل مسألة تحرير الوطن فوق طاقة البشر لذا فهو لا يلوم السياسيين بقدر أنه ينتظر مشيئة الرب،** وهذا بالحقيقة **هروب تواكلي** من حل أزمة التحرير الوطني واستهتار بعقليات الآخرين عندما يرفض أولويات الحلفاء الطبيعيين وينجر خلف أوهام سياسيين وضع لهم هالة دينية .

---

[6] "إن آخر ما يود الفلسطينيون فعله هو رواية حكاياتهم. إنهم يريدون مجرد البقاء. إن مشكلة البقاء كبيرة جداً لديهم، حيث لا يتسنى للفلسطيني التفكير في سرد الحكايات، بل اجتياز يومه إلى اليوم التالي. يصح هذا الأمر في الضفة الغربية وقطاع غزة، وفي أي مكان آخر يكونون فيه عرضة للتمييز والاضطهاد."-د.ادوارد سعيد

[7] الكاتب يتحدث عن فئة من اللاجئين وليس كلهم بدلالة حديثه بالنقطة اللاحقة عن اللاجيء العقلاني غير الحالم، وعليه تختلف الحجوم والمساحات-مركز الانطلاقة للدراسات.

اللاجئ العقلاني (ومنه نحن الفلسطينيون) هو مَن :

- **يسعى أن يكون جزء من الفعل الميداني لمساندة من بقية من شعبه في الوطن**
- ويعمل على توسيع دائرة التضامن الشعبي حوله
- ويتعلم من تجارب اللاجئين الآخرين
- ويشعر بأوجاعهم
- ويرفض الاحتلال لأراضي الغير وطرد الشعوب من أوطانهم.

وهذا الإيمان الراسخ بالعودة سيفتح له آفاق كبيرة لفهم معسكر الحلفاء، وسيشعر بتفاؤل عندما يرى أن بعض اللاجئين عادوا لأوطانهم.

هذه العقلانية الثورية ستبني ثقة داخله بأن العدل سيسود يومًا ما وسيعود هو حتمًا لوطنه.